الابتسامة الغامضة

قصة بقلم محمد أبو المعاطي أبو النجا

لا يختلف اثنان في المدرسة كلها على ان « صابر افندي » اخلص وانشط مدرس ، وفيما عدا ذلك فلا يتفق شخصان في المدرسة على راي بالنسبة « لصابر افندي » بل ولا يكاد شخص واحد يستقر على راي فيه ! وحتى الناظرة التي لم تكن تخفي اعجابها بدقته في عمله، وحرصه على مواعيد الحصص ، اصبحت لا تخفي ضيقها بالطريقة التي يتبعها لكي يكون فصله مثاليا في كل شيء ، ففي كل يوم يرسل لها بصحبة الضابطة تلميذة او اكثر رجاء التكرم بتوقيع العقاب المناسب مع تلخيص سريع لنوع الخطأ الذي ارتكبته التلميذة ، ومعظم هذه الاخطاء لا يخرج ابدا عن الكلام او الضحك او العبث في الفصل .

ومع ان الناظرة لم يكن يضايقها شيء مثلما تضايقها هذه الاعباء الجديدة التي يحيلها عليها « صابر افندي » فانها لم تكن تستطيع ان تمنع نفسها وهي في قمة الضيق من الاعجاب بشيئين: خط صابر افندي الانيق والطريقة الجادة التي يكتب بها شكواه من التلميذات ، مما جعلها تعتقد ان هذا الرجل لن يفهمها ابدا لو طلبت اليه ان يدبر امؤره مع تلميذاته كما يفعل جميع الاساتذة ، ولقد دفعها ذلك الى ان تهمس « لخليل افندي » حلقة الاتصال بينها وبين جميع المدرسين ، ان يوضح الامور « لصابر افندي » فليس في المدرسة كلها مدرس واحد يرسل الى مكتب الناظرة كل يوم مثل هذا العدد من التلميذات ..

وعبثا حاول « خليل افندي » ان يوضح الامور بلباقته التي رشحته لمثل هذه المهام ، لقد انتظر عليه صابر افندي حتى فرغ من مقدماته الطويلة الى غرضه ثم قال له بلهجة حاسمة وهو يثبت فيه عينيه الصارمتين

ـ اسمع يا استاذ خليل ، التدريس في نظري ليس مجرد مهنة او وظيفة اخذ عليها اجرا .. انه رسالة .. مسؤولية تربية جيل جديد.. والتربية عملية تشمل الانسان كله ، ثقافته وخلقه ، ولهذا مستحيل ان اسمح بوجود بنت تهرج او تتكلم او تضحك في الفصل .

ـ لكن يا صابر افندي انت عارف اننا كلنا..

فقاطعه صابر افندي محتدا :

ـ يا خليل افندي .. معذرة .. انا لا اقبل ان يكون فصلي مثل بقية فصول المدرسة .. لكم دينكم ولي دين .

وحين وصل الامر الى هذا الحد آثر خليل افندي انهاء الموضوع، فقد كان منذ البداية يعلم انه لا فائدة ترجى من الحديث مع صابر افندي ، ولولا خاطر الناظرة لما حاول ابدا ان يفتح معه مثل هذا الحديث .

*

وفي الواقع ان فصل « صابر افندي » كان يختلف عن بقية فصول المدرسة كما كان صابر افندي نفسه يختلف عن بقية المدرسين ، وكان هذا الاختلاف مما يتحدث عنه عادة المفتشون والمسئولون الذين لا تستغرق زيارتهم للمدرسة الا اياما كل عام او عدة ساعات في اليوم . وقد كانت احاديث هؤلاء المسئولين حرية بأن تبعث في نفس « صابر افندي » من السعادة ما يشجعه على ان يستمر في كفاحه الدائب من اجل ان يظل فصله دائما نموذجيا في كل شيء !! لولا انه بدأ يلاحظ اخيرا في هذا الفصل الهادىء الساكن كوجه البحيرة ، شيئا غريبا لا عهد له به .. شيئا لا يستطيع ان يبوح به لمخلوق ، فالمخلوقات التي حوله ربما كانت في انتظار ان تسمع شيئا كهذا التشمت به شماتة لا حد لها .. !

لا يدري « صابر افندي » متى يحدث هذا الشيء الغريب ، ما ان يدخل الفصل ، ويغلق خلفه الباب ، حتى يكون كل شيء على ما يرام ، التلميذات يقفن في نظام ويجلسن في هدوء ، الصمت يخيم على الفصل كله .. فكل تلميذة تعرف انه لن يفتح فمه بكلمة قبل ان يسود الصمت صوت « صابر افندي » يرتفع تدريجيا حتى يملأ الفصل كله ، والنشاط يتسلل الى جسده ، فتزداد حركته بين السبورة ومقاعد التلميذات ، وتنشأ علاقة غريبة بين كلمات معينة وبين حركات يديه بل وحركات رأسه، فكلمة « مفهوم لغاية كده » وكلمة « كويس كده » يستتبعان ميلا خفيفا في عنقه جهة اليمين ، وفي نفس اللحظة تتلاقى اطراف اصابع يديه المبسوطتين للحظات عابرة ، كل شيء يكون في البداية على ما يرام ، وفجأة يحدث هذا الشيء الغريب ، لا يعرف « صابر افندي » كيف ولا متى يحدث ؟ ولا من اين يتسلل ؟ الباب محكم ، والصمت لم يخدش بعد ، ورؤوس التلميذات لا تزال تتابع « صابر افندي » في حركته وكأنها مربوطة فيه بقيود خفية .. ومع ذلك فهو يلاحظ ان هذه الرؤوس التي امامه تتحول فجأة الى مجرد كرات .. مجموعة من الكرات ثبتت باحكام فوق مجموعة من الاجساد البشرية ، وتتحول العيون الى مجرد ثقوب في هذه الكرات ، ومع ان هذه الثقوب لا تزال تتابع حركته فانه يحس بطريقة ما انها لا تقف عنده ، لا تبصره !!

حتى هذه اللحظة ، والامر لا يزال محتملا ، ومما يمكن علاجه ، ولكن ما يحدث بعد ذلك فهو ما يملأ نفس صابر افندي بالمرارة والحيرة.. ان ما يحدث بعد ذلك ، هو ان تأخذ هذه الكرات شكل وجوه بشرية تظهر فيها ملامح مرهفة ، ولا يكاد « صابر افندي » يسعد برؤية هذه الملامح البشرية حتى تتنكس سعادته ، حين تصطدم بهذه الابتسامة التي تولد فجأة مع هذه الملامح ، ابتسامة غامضة ، ترد الثقبين الفارغين الى عينين بشريتين ، وتحرك كل عضلة في الوجه ، ولكنها لا تصل ابدا الى شفتي اي تلميذه .. وبهذا تظل تلك الابتسامة الغامضة شيئا لا يقع تحت دائرة الممنوعات التي يعاقب عليها صابر افندي بالطرد ، فهي لا تتحول ابدا الى ابتسامة واضحة او الى حركة عابثة ، ويحدث ان تنتقل تلك الابتسامة الغامضة من وجه الى اخر ، ويتحول الفصل كله الى وجه كبير تختلج ملامحه كلها بتلك الابتسامة الغامضة !

ولقد حاول صابر افندي طويلا ان يتجاهل امر هذه الابتسامة ما دامت لا تمس مظهر الفصل كما يراه بقية المدرسين ، وما دامت لا تحول بينه وبين اداء واجبه على الوجه الاكمل ، كان يخشى اذا اعتبرها خطأ يعاقب عليه ، ان يكون في هذا اعتراف بها ، وربما تأكيد لوجودها ، كان يتوقع ان تختفي فجأة كما ظهرت فجأة .. ولكن ما حدث هو انها لم تختف ابدا .. كانت تطفو دائما فوق سطح الفصل الساكن الهادىء كجزء منه ، وبدأت تعمل عملها الخفي في نفس صابر افندي ... « مستحيل ان يكون وجود تلك الابتسامة امرا عاديا لا معنى له .. الناس لا يبتسمون لغير ما سبب .. لا بد انها تعبير عن شيء تدركه بطريقة واحدة كل هذه الوجوه .. شيء لا يفصل بينه وبينه غير هذا الجدار الرقيق لهذه المجموعة من الكرات ».. واحس انه يود لو حطم هذه الكرات ليعرف ما بداخلها .. او عاتب نفسه عى هذا الاحساس البغيض .. لماذا يسمح للغضب ان يطيش صوابه ، انه لا يفهم لحياته معنى الا في تربية هذا الجيل لا في تحطيمه ، في توجيه حياته الى مستقبل افضل ! فلماذا يوشك ان يفقد صوابه امام شيء كهذا ... ؟ لقد واجه بشجاعة وبحكمة كل الوان العبث التي كانت تصدر عن الفصل ، وقضى عليها ، واصبح فصله نموذجيا ، فلماذا يوشك ان يفقد زمام حكمته وشجاعته امام تلك الابتسامة الغامضة ؟.. يجب ان يظل حبه لتلميذاته وواجبه اعظم من حبه لنفسه ولكبريائه !.. لماذا لا يكون صريحا مع نفسه فيعترف لها بان ضيقة بهذه الابتسامة يرجع الى شعوره بانها تختلف

عن ألوان العبث الاخرى ـ التي قاومها دون توتر ـ بانها تبدو كما لو كانت موجهة اليه ، كما لو كان هو مقصودا بها .. وحتى لو كان الامر كذلك فلماذا لا يفكر فيه على نحو اكثر واقعية .. اليس من الجائز ان يكون في ملابسه ، في صوته ، في حركاته ، في كلماته ، ما يدعو الى الابتسام ؟ لماذا لا يعالج الامر بطريقة تليق به .. برجل صاحب مبدأ ؟

❋

واصبح « صابر افندي » لا يدخل الفصل الا بعد ان يتأكد من ان مظهره على ما يرام ، ولا ينطق بكلمة الا بعد ان يديرها في رأسه ليطمئن الى انها ليست مما يثير الابتسام ، كما بدأ يقتصد في حركات يديه ووجهه ، ويحاول ان ينتبه لكل ما يصدر عنه ، ان مصلحة التلميذات في نهاية الامر تبرر كل جهد مبذول مهما كان شاقا ، والمعركة لن تكون بينه وبين التلميذات بحال ، يجب أن تظل بينه وبين الخطأ الذي يحرص على الا يقع فيه ، بنفس الدرجة التي يحرص بها على ان يجنب تلميذاته الوقوع فيه ايضا !

واعتقد « صابر افندي » انه بهذه الطريقة الواقعية والمثالية معا سوف يقضي على هذه الابتسامة ، ولكن فرحته لم تكتمل بل لعلها لم تبدأ ، فقد لاحظ « صابر افندي » انه برغم الجهود التي بذلها ، لا تزال الابتسامة الغامضة تظهر فجأة ، وتنتشر سريعا ، وتطفو على سطح الفصل الساكن لتقيم بينه وبين تلميذاته حاجزا غاية في الرقة والصلابة معا ، حاجزا لا يقتحم ، ومن جديد احس أن كبرياءه تتعرض لامتحان قاس هذه المرة ، ولكنه اقسم الا يدخل الكبرياء في الموضوع ، فاذا كانت التلميذات يبتسمن فمعنى ذلك لدى ابسط العقول في الدنيا ، ان هناك ما يدفعهن لذلك ، واذا كان هو قد عجز عن معرفة السبب ، فلن يوجد في العالم كله من يعرفه اكثر منهن .. وبهدوء شديد تقدم « صابر افندي » من اقرب تلميذة وسألها :

ـ لماذا تبتسمين ؟ هل حدث شيء يدعو في نظرك لهذه الابتسامة؟

ـ لا يا استاذ ، عايدة هي التي ابتسمت اولا فابتسمت مثلها

وقالت عايدة : ـ لا مؤاخذة يا استاذ ، فاطمه هي التي ابتسمت اولا...

وقالت فاطمه : ـ معذرة يا استاذ سعاد هي التي...

ولم يجد « صابر افندي » بدا من ان يوقف هذه السلسلة اللعينة. قبل ان يتعثر في حلقاتها ويصبح اضحوكة ، واعلن لتلميذاته ان مثل هذه الابتسامة مما يعاقب عليه ، وانه لن يسمح لتلميذة تبتسم بالبقاء في الفصل ، وفي نفس اللحظة كان قد تعلم من هذه السلسلة ان هذه الابتسامة اللعينة تبدأ عادة من مكان ما في هذا الفصل ، من تلميذة او شلة تحمل بذور الفساد ، وان بقية التلميذات انما ينسقن في تقليدهن وان هذه الابتسامة تختار عادة أنسب اللحظات لتولد ثم تنتشر، وغالبا ما يحدث ذلك حين يدير ظهره ليكتب على السبورة بخطه الجميل اهم نقاط الدرس .. واذا تمكن من ان يعاقب هذه التلميذة او هذه الشلة ، لامكنه ان يقضي بذلك على اصل الفساد كله ، وان يظل فصله كما كان دائما فصلا نموذجيا ..!

❋

في اليوم التالي تظاهر « صابر افندي » بانه يستدير ليكتب على السبورة ، ولكنه كان قد قرر الا يلجأ لهذه الوسيلة الا ليعرف مصدر الفساد في الفصل كله ، فحين التفت فجأة ليواجه التلميذات وقبل ان يكتب على السبورة كلمة واحدة ، كان قد ابصر على الفور الشلة التي تجلس في الركن الايمن للحجرة ، والابتسامة اللعينة تولد فوق ملامحهن شريرة متلصصة حذرة .. وطرد الشلة بأكملها ، وبدأ يلتقط انفاسه ، هذه الشلة هي نفسها التي كانت تبدأ التهريج والعبث في الماضي ، اما الباقيات فانه يعرفهن .. غريرات ينسقن وراء الشر ولكنهن لا يبدأنه ابدا .. يجب ان يظل هذا الفصل نموذجيا كالعهد به .. انه بذلك يحمي هؤلاء الغريرات وتلك مسئوليته ، كما انه يتيح الفرصة للاخريات بان يبدأن طريقا جديدا.. وفوق ذلك كله ، فانه سوف يتخلص الى الابد من هذه الابتسامة الغامضة التي لم يفلقه طوال حياته شيء مثلها ...!

❋

في صباح اليوم التالي لم يبال « صابر افندي » ان يدير ظهره للفصل كله حتى لا يحرم التلميذات من فرصة الكتابة على السبورة بخطه الجميل امثلة توضح الدرس . كان واثقا .. وكانت المصادفة وحدها هي التي جعلت قطعة الطباشير تنكسر في يده فيلتفت ليستبدلها بقطعة اخرى ، فيبصر الابتسامة اللعينة تتسلل في حذر على وجوه شلة من التلميذات كانت تجلس مباشرة بجوار الشلة المطرودة ، وسقطت قطعة الطباشير من يد صابر افندي ، وارتعشت يده دون ان ينتبه لها ، وظهر وجهه كما لو كانت تهب عليه وحده عاصفة عاتية ، وفي نفس اللحظة، كان صابر افندي يفكر بنصف رأسه فقط : ما معنى هذا كله ؟ لم افعل ابدا شيئا ضد هذه المخلوقات ؟! بل فعلت الكثير من اجلهن ! حتى قسوتي كانت من أجلهن ! لم تكن قسوة ابدا كانت حبا .. وحتى هذه اللحظة لا اعرف ماذا يفعل شخص مثلي بحياته اذا لم يبذلها من اجلهن ؟ اريد فقط ان افهم لماذا يبتسمن تلك الابتسامة اللعينة ؟ اريد اجابة معقولة ولن اتردد لحظة في ان افعل اي شيء ، ولمح في نصف رأسه خاطر بدا له معقولا الى حدما .. الشلة التي تبتسم تجلس بجوار شلة الامس المطرودة ، ربما تاثرت باخلاقها في الماضي... لن يتردد في عقابها هي الاخرى .. قد يصلحهن العقاب .. لن يهمه ان يصبح عدد التلميذات الباقيات مما يلفت نظر اي زائر للفصل ... ! المسألة ليست عددا ... المسألة تتعلق بمبدأ « يكون» او لا يكون » وطرد الشلة المجاورة ... وبدا الفصل هزيلا حقا به من القماطر اكثر جدا مما به من التلميذات ، منظر المقاعد الخالية يقبض القلب ، ولمح في خاطره ان الفصل بدون تلميذات لا يفترق ابدا عن اي مخزن للاخشاب القديمة ، وضاق بهذا الخاطر السخيف.. لا ينبغي ان يقف لحظة عند هذه الصغائر ، المسألة تتعلق بمبدأ ، انه يثق في التلميذات الباقيات ، يعرف اخلاقهن جيدا ، ومع ذلك فلم يجرؤ هذه المرة ان يدير ظهره للفصل ، ووجد نفسه يمضي في شرح الدرس دون ان يلتفت الى السبورة مرة واحدة ، ولا يدري ما الذي جعل صوته يرتفع هذه المرة اثناء الشرح عما تعود في المرات السابقة ، وكان ارتفاع صوته ينم عما فيه من قلق.. كما بدت حركات يديه اكثر عصبية ، وتنبه الى انه يكرر احيانا الكلمة الواحدة وربما الجملة اكثر من مرة ودون مناسبة ، واحيانا يصمت لسبب غريب هو انه يكتشف ـ وهذا يحدث له لاول مرة ـ ان رأسه يخلو فجأة من اي كلام .. كسائر يتحول الطريق تحت قدميه الى حافة هاوية عميقة ... وفكر في تلك اللحظة ان يستدير ليكتب على السبورة .. ليكتب اي كلام ، ربما يلتقط انفاسه ، وينظم افكاره ، وليستريح لحظة من عناء التحديق في هذا السطح الساكن الذي يخشى ان تطفو فوقه نفس الابتسامة الغامضة ، ولم يجرؤ مرة اخرى ، كان يحس بطريقة غامضة ان الابتسامة اللعينة في طريقها الى السطح الساكن ، في انتظار ان يدير وجهه لحظة واحدة .. انه يلمحها تضطرب وترعش وجوه التلميذات وتطرف عيونهن ولكنه لن يسمح لها ابدا بان تطفو فوق هذه الوجوه .. لن يمنحها هذه الفرصة ، ان وجوده .. مجرد وجوده يفرقها تحت هذا السطح ، ولن تطفو فوقه الا جثتها ! !

واكتشف فجأة انه قد مضت خمس دقائق دون ان يفتح فمه بكلمة واحدة ، ودون ان تكون اسباب صمته مفهومة على الاقل بالنسبة للتلميذات .. وان عينيه وحدهما هما اللتان كانتا تحدقان في وجوه التلميذات ، وفمه نصف مفتوح ، وذراعه لا تزال معلقة في الهواء كان شخصا يقبض عليها من الخلف ، وفكر ان منظره طوال تلك الدقائق كان ولا يزال مضحكا وانه بذلك هو الذي القى بطوق النجاة لتلك الابتسامة اللعينة التي تمزق السطح الساكن وترتسم في لحظة واحدة على كل الوجوه كأنما تحمله وحده مسؤولية ظهورها !

ومرت لحظات كان خلالها عاجزا عن اي تفكير، لقد حاصرته الابتسامة حاصرت حتى خواطره .. خاطر واحد افلت من هذا الحصار !. لن يكون بمقدوره ابدا ان يطرد احدا هذه المرة ، انه لو فعل لما كان هناك فصل على الاطلاق ولما كان ثمةمبرر لوجوده ، ومع ذلك فقد احس بطريقة قاسية ـ ان وجوده مع تلك الابتسامة اللعينة اصبح هو الاخر مستحيلا تماما ، فألقى على التلميذات نظرة اخيرة مريرة وادار ظهره لهن و...

وحين تلاشى صوت الباب الذي صفقه من خلفه ، كانت الابتسامة الغامضة قد تلاشت بدورها وخلفت وراءها وجوما ثقيلا .

القاهرة

محمد أبو المعاطي ابو النجا